الأدب فى نهضتنا الحديثة

بقلم محمد هاشم عطية الأستاذ بدار العلوم

أدرك الناس زمان بعد نكبة ابن المعتز كانوا يتطيرون فيه من اسم الأدب ويحسبون المشتغلين به من أهل البطالة المقطوعين عن الاكتساب ويخشون أن تدركهم كما أدركته حرفة الأدب حتى أظلنا هذا العصر الذى تنبهت فيه الشعوب لاحياء العلوم ، وفطنت لما نهض به الأدب من النتائج البليغة ابان تحول الأمم فى وثباتها القديمة ، فأنشأت المكاتب العامة وأقامت الدور للمحاضرة والخطابة ، فأقبل الناس من الطبقات المختلفة على اصطناع الأدب واتخاذه كما كان وسيلة إلى المنزلة وتحصيل الحظ من الحياة . وما كنت تطمع قبل ذلك أن ترى فى مصر هذه الكثرة الغامرة من أندية الأدب ومن اسماء المتأدبين من الكتاب والشعراء ، ولا ما تغص به من الرسائل والدواوين حتى ليخيل إليك أنه أصبح شأناً من الشئون الضرورية للناس يعنون به كما يعنى التجار بالأسعار والصناع بالأسواق ، وأصبحت كبريات الصحف تجرد له الأبواب ، وتنشىء فيه الفصول الطوال ، وجاز لك حينئذ أن تتفاءل بأنه إن شاء الله صائر على هذا النمط من النشاط المطرد إلى أرقى ما سمت إليه البلاغة العربية فى عصورها الزاهرة .

ولكنك عند التفقد والمراجعة ، وعند القعود للاعتراض والنقد ستقول : ينبغى للعاقل ألا تخدعه هذه الكثرة من الكتاب ، والشعراء ولا أن تغره هذه الجمهرة من الدواوين والكتب ، وان يعلم أن الرجاء ليس بكثرة الأعوان ، ولا فى شدة الضجيج ، بل قد تكون هذه الجهارة

مظنة الحرمان والفشل كما دلت عليه التجربة فى كثير من الحالات . لأنك حين تقرأ هذا الباب من الصحف ، أو حين تطالعه فى كتاب أو ديوان من هذه الدواوين ، ستجد فى كثير منها ما يسمونه من قبل أنفسهم « دراسة فنية عميقة » من شاعر لشاعر أو من بعضهم لبعض تشعر عند قراءتها كأنك تقرأ قصة خيالية ، أو أسطورة قديمة . فالشاعر فى هذه الدراسة هو وحده الذى هبطت عليه الحكمة وألهمته الحياة معانى الجمال . وأنه يتسامى فى عبقريته عن العقول ويجل عن قوانين اللغات . وقد يرى من الهجنة لأدبه أن يخضعه لقاعدة أو يشينه بالاستسلام لأحكام لغة من اللغات . والشاعر أو صاحب الديوان مغتبط بهذا الاطراء الذى يعصمه من كل زلل ، ويعفيه من كل نقص ، راض عن أدبه وعن نفسه ، مقتنع بأنه اصاب المفصل وبلغ إلى الغاية وأن من يحسب شيئاً من أدبه ركيكا أو قولا خطأ فأنما أتاه ذلك من قبل فسولته وفساد قياسه واختلاف تركيبه . وتزداد عندك هذه الريبة حين تجد الكلف الشديد من بعضهم لبعض بتقارض الثناء والعمل على إقامة التكرمات واستحضار الجموع لشهود النبوغ ولتقرير العبقريات والاعتراف لهم بالغلب والتقدم ، ويعقدون الفصول فى الموازنة بين جماعة منهم يسمونهم « الشعراء الثلاثة » كان الأمر قد استقر والنزاع انقطع على أن هؤلاء هم ثلاثة الشعراء كثلاثات الفحول من طبقة جرير والفرزدق والأخطل فى صدر الاسلام وأبى تمام والبحترى والمتنبى فى الدولة العباسية وشوقى وحافظ وخليل فى عصرنا هذا وهو بعض ما تعانيه من أملائهم على الناس وتحكمهم فى مذاهب المنقطعين لخدمة هذه الصناعة من المطبوعين ولا يوجد مثل هذا النوع من النقد فى أمة من الأمم ولا فى عصر من عصور الأدب ولاحظى به حقير ولا جليل من شعراء العالم . ومن شأن هذا النقد أنه لايحمل على

تنقير ولا تتبع ولا يبعث على استكمال فى صناعة ولا تهذيب لمذهب . فتركد به القرائح ولا تشرئب الهمم إلى الانتقال من حال إلى حال

وقد يحمل ذلك على القول بأن من بين أدباء هـذا العصر من ليس له طبع ولا فيه موهبة ولا ذوق ، وله ولوع بالشهرة ، وقد يكون من أهل صناعة أخرى أقعدته قلة التمهر فيها عن شفاء هذه الشهوة من الميل إلى نباهة الصيت وظهور الأمر فيدخل إلى حلبة الأدب وليس عليها رقيب ولا لها حاجب ولا هى مما يمس مصالح الناس التى يتبين فيها الصحيح من الفاسد ، والأصيل من الدخيل ، والدعى فى كل صناعة إلا صناعة القلم ، نصب المسألة ورهن الاختبار وهو فوق ذلك عرضة لطائلة العقاب ، وكساد السوق ، والتوارى عن الأبصار . وإن كنا لا نقول بحرمان أهل الصناعات العلمية من ذوق الأدب رغم ما يكسبه مراسها من ثقافات مجانبة فى الجملة لطبائع المتأدبين . فربما سلم الذوق الأدبى فى الطبيب أو المهندس مثلا من عيب العصبية ومن تأثير الصناعة ، فيكون حينئذ ميزاناً للنقد وعياراً على الأدب ويكون صاحبه أديباً مطبوعا ، وراوية ثقة ، ومنشئا للمنخول المهذب من الكلام . وربما جرت هـذه الحال عند تفاقمها إلى استكراه الناس للأدب ، واستثقالهم لأهله ، واعتبارهم كأهل الحرف البغيضة التى لا يعالجها العلية من الناس : نقول هذا ونحن لا نرى مع ذلك أن نتشاءم إلى هذا الحد إذ لا تخلو كل نهضة من أن يتخللها مثل هذه الحال من الاضطراب والفوضى ثم تسكن الثائرة ويستقر الأمر وتعود العقول إلى الأنتاج النافع فى ظل الاستقرار والدعة ، وذلك ما يتوقعه المحبون للغة والأدب من هذه النهضة الحاضرة فأن من بين شعرائها وأدبائها من يصح أن يناط بهم الأمل ويعقد عليهم الرجاء وسنشير إلى ذلك عند مانعرض بعض ما وقفنا عليه فى كتبهم ودواوين أشعارهم الحديثة من

جيدها ورديئها لتعلم أن الأليق بنا أن نقف من هذه الحالة موقفاً وسطا بل أن نكون أميل إلى جانب الرجاء وأن يتغلب عندنا الطمع فيما عندهم من ذخائر القرائح فى المستقبل إن شاء الله .

وأول ما يلاحظ فى هذه الدواوين بوجه عام ذلك التنوق الظاهر فى اختيار الأسماء واجتلاب الألقاب للدواوين والأشعار فسترى فيها « أطياف الربيع » و « الألحان الضائعة » و « الشفق الباكى » و « اليذبوع » و « والأعشاب » و « وراء الغمام » وتجـــد بين أسماء المقطوعات . والقصائد مثلا : « اللهفة الخالدة » و « زهر الحب » و « الحزن الوديع » و « أنشودة الهاجر » و « حلم العذارى » و « البسمة الحزينة » وهى ترجمة لبعض مايترامون عليه ويدعون دراسته والمعرفة برجاله من الأدب الأجنبى مما يصح أن يشعرك أيضاً باتهامهم لأدبهم حتى احتاجوا إلى تزيينه بمثل هـذه الكلمات المجلوبة والألقاب المموهة . ولعل ذلك هو التجديد عندهم كما أنك حين تقدر على عكس الأمور ونقض طبائع الأشياء تدعى فى مدرستهم الحديثة من المجددين كالذى يقول :

بك خف الجناح يأيها الطـــير وما كنت بالجناح تخف

فالدعوى بأن الطائر لا يخف بجناحه مناقضة لقول خالق الخلق والطير فى كتابه العزيز « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » ولو كانت العنقاء مقصوصة الذنب أو منتوفة ريش الجناح وهمت بالطيران لعرفت أنها أضيق من ذلك ولكانت كالذى ينتصر بالعجز ويستعين ـ أعاذك الله ـ بالخذلان

وشىء آخر وهو رغبة أولئك الشبان من أنصار المدرسة الحديثة فى الظهور أحياناً بزى النساك الراغبين عن زخرف هـذه الحياة الدنيا وأحياناً بمظهر كبار الفلاسفة الناظرين فى أعماق الأمور فيضطربون فى القول

ويرتبكون فى العبارة . وإليك بعض ما لقيناه فى هذه الكتب والله يعلم براءتنا من التحامل وكراهتنا لموضع النقد إذا كان عصبياً لعصر على عصر أو لقديم على جديد قال فى اليذوع بعنوان « عيون المنصورة » والظاهر أنه يقصد أهل مدينة المنصورة فيما يوصفون به من حلاوة أعينهم وجمال أشعارهم وألوانهم :

عيون كلها فتن وأصداء من الفتن
أحن لسمرة فيها كسمرة مائها الفنى

فذكر كلمة أصداء بعد قوله كلها فتن لاقيمة له . والمعروف أن يترقى القائل فى المدح من الأهون إلى الأقوى لا العكس . وماهى أصداء الفتن المضافة إلى العيون على فرض صحة وضعها هنا؟ أما سمرة العين وسمرة مائها وفنيته فما لم يسبق به القائل . ولقد قطع العلماء من السلف عذر المتأخرين بتنبيههم على رداءة مثل هذا الكلام حين عابوا قول الأول (على وضوح الفرق بين الكلامين)

أيا تملك يا تمل وذات الطوق والحجل
ذريني وذرى عذلى فأن العذل كالقتل

ومن ذلك عنوان « زهر الحب » وفيه صورة امرأة مجردة على بطنها وصدرها رسم زهرات يظهر أنها المقصودة بهذا العنوان ولها يقول :

عرضت لنا تقاسيم الجمال وأشعاع الحقيقة والخيال
تلألأ بالهوى القدسى بينا تدفق بالتجاوب لا بتهالى

فالبيت الأول كلام منظوم قد تفهمه مع عنف ومشقة أما البيت الثانى ففيه استعمال بينا فى الحشو وما عدا ذلك فغير مفهوم ثم « أنشودة الهاجر »

يا حبيبى كفى بعادك كفى صيامى على هواك
وهل فؤاد له فؤادك سوى فؤادى الذى افتداك

ولو أن هذا الكلام قد احتمل معنى صحيحا لما عدل ما فيه من رداءة النسج كما هو ظاهر . وفى هذا الديوان عنوانات أخرى كالبحر الصغير ، وصومعتى ، والفراشة وما أشبه ذلك مما لايخلو من سقط وبعضه مستقيم حسن . وفى أطياف الربيع عنوان منكر قبيح هو « الاله المتنكر » فبعد أبيات منها :

هذى الألوهة أشرقت وتنكرت فبدت لنا فى صورة الحسناء

يقول :

حتى الإله يرى التنكر واجبا فى هذه الدنيا أمام الناس

ولا أدرى لهذا الكلام غرضا ولا معنى فضلا عما يحويه من سوء التعبير وسماجة الوضع والتهجم بمثل هذا الكلام على لفظ الجلالة كما ترى .

أما وراء الغمام فيعجبنى أن أقر لصاحبه بالطبع السليم والديباجة الواضحة وأكاد لا أعثر له إلا فى مواضع قليلة على سقط أو ردىء ومن لطيف ماجاد له قوله :

شكا أسره فى حبال الهوى وود على الله أن يعتقا
فلما قضى الله فك الأسير حنّ إلى أسره مطلقا

وفى الديوان قضى الحظ مكان قضى الله وهذه عندنا أليق ومن رقيق كلامه الذى يصح أن يتغنى به . قوله :

يا حبيبى هدأ الليل ولم يسهر سوانا
لا الدجى ضمد جرحينا ولا الصبح شفانا
لا الهوى رق على الشاكى ولا قاسيه لانا

ولو جعل هذا البيت « والهوى مارق للشاكى ولا قاسيه لانا » لكان أحسن من هذا الفصل غير أن مما يؤخذ عليه قوله من قصيدة :

كم زفرة فى الضلوع قرت يحوطها هيكل مريض
مبيدة حيثما استقرت فان ثبح سميت قريض

هكذا بقافية مرفوعة أو ساكنة على الأكثر وتعتبر الثانية على هذا لحنا وليست من ضرورات الشعر

ومثل ذلك أيضاً قوله من قصيدة هيكل الحسن أو الحب :

ياهيكل الحسن المبارك ركنه الساحر النور الطهور رحاب

بالكسر وفيه اضافة الصفة بأل إلى المجرد منها وهو ممنوع قطعاً .

أما ديوان الاعشاب ففيه عدة قصائد جيدة تدل على موهبة يوشك أن يكون لها ثمرات ناضجة قوية غير أن مما يؤخذ عليه قوله فى

« آه يا يوم اللقاء » ليتنى كنت إلهـا

إذ لم يجر العرف الأدبى بأن تكون الألوهية من أمانى الشعراء وكل ذلك ليجعل يوم اللقاء طويلا لا يضاهى والاعتبار وحده كاف فى تصحيح هذه الظلبة .

ثم قوله فى « حلم العذارى » قال :

— اسمحى لى الآن أن أسأل فيما تفكرين .

وهى كما ترى عبارة بلدية

وبعد أبيات منها يتبين أن العذراء إنما تحلم بالعناق وما ليس إلى التصريح به هاهنا سبيل ، وهو مع كونه معنى طبيعيا مسلما لاحاجة بالشاعر أن يتناوله .

وكذلك تجده فى « رسالة الكوخ » إذ جعل صاحب الكوخ قوادا وهو بوضعه لصاحبته فى كوخ قواد ، قد ألبسها ريبة من حيث لا يشعر تضع من نفاستها وتجعلها مواجرة ولكنه حين يعود إلى النظر فى البيئة المصرية ويتكلم فى الوساطة والرشوة يقع له من لطف الاشارة وملاحة

النادرة بقدر ماعرف عن الشعراء المصريين من دعابة ودقة كقوله تحت عنوان « كفاية » .

قالوا فلان ترقى من غير أدنى كفاية
فقلت لا تظلموه فكم له من وشاية

وأخرى يقول فيها :

رقيك فيه برهان صريح على الخلق الموصل للترقى
فانك طاعة عمياء تمشى بحق للرئيس وغير حق
كأنك لم تكن يوما بحر فيالك بيننا عنوان رق

ذلك ولم نرد التعرض لغير هذه الدواوين التى استشهدنا ببعض مافيها لأنها فى نظرنا ليست بشىء ، وربما كانت لنا كلمة فى التأليف والكتابة والكتاب فى فرصة تالية وأننا نرجو الله أن يمد أدباءنا وشعراءنا بروح الرغبة فى العمل الصالح فيعودوا بفضل ثقافاتهم على هذه الثمرات الباكرة فيصنعوا بها ما كان يصنعه أسلافهم فى العصور الماضية يسقطون من حسابها مالا يستقيم ويضيفون إليها ما يتجدد به الزمن من فيض الخواطر فيضمون بذلك ثروة إلى ثروة وأدبا إلى أدب والله ولى التوفيق ؟